[١٦٠ – عن أبي مسعودٍ عقبة بن عمرو الأنصاري البدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، وإنهما لا ينكسفان لموت أحدٍ من الناس، فإذا رأيتم منها شيئاً: فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم)].

هذا الحديث حديث عقبة بن عمروٍ – ويقال: ابن عامرٍ – البدري رضي الله عنه وأرضاه في خطبة النبي ﷺ يوم كُسفت الشمس، وقد اشتمل هذا الحديث على جملةٍ من المواعظ، واختلف العلماء – رحمهم الله –: هل صلاة الكسوف تشرع لها خطبةٌ، أو لا تشرع لها خطبةٌ؟ فجمهور العلماء من الحنفية والمالكية والحنابلة وطائفةٍ من أهل الحديث على أن صلاة الكسوف والخسوف لا تشرع لها الخطبة، إلا إذا وُجد سببٌ يحتاج الناس فيه إلى الموعظة والتذكير بالله ﷻ ، فإنه يشرع للإمام أن يذكر الناس. وذهب الإمام الشافعي – رحمه الله – إلى مشروعية الخطبة لصلاة الكسوف؛ لأن النبي ﷺ خطب ووعظ الناس، واحتج بهذا الحديث، وقد قال – عليه الصلاة والسلام –: (صلوا كما رأيتموني أصلي). وقد أجاب الجمهور: بأن هذه الخطبة وهذه الموعظة من رسول الله ﷺ وقعت بسببٍ: وهو أن الناس حينما كسفت الشمس، تحدثوا بما كان عليه أهل الجاهلية فقالوا: إن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم، وكانوا في الجاهلية: إذا مات عظيمٌ أو هلك عظيمٌ، فإنهم يقولون: إن الشمس تنكسف لموته في ذلك العام، وكذلك إذا انكسفت الشمس تشاءموا بانكسافها، وقالوا: إن هذا العام لابد وأن يموت فيه عظيمٌ، وكل ذلك من أمور الجاهلية. فبين النبي ﷺ أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته. فقالوا: إن النبي ﷺ احتاج إلى الموعظة واحتاج أن يذكر الناس، فلا تصبح خطبةً مسنونةً – بمعنى: أن تكون خطبةً ثابتةً في كل صلاة كسوفٍ –، وإنما هي خطبةٌ عند الحاجة، وهذا هو الصحيح: أنه يشرع للإمام أن يذكر الناس إذا علم منهم الخطأ أو الغفلة، فاحتاج أن يعظهم كما وعظ رسول الله ﷺ أصحابه.

يقول – عليه الصلاة والسلام –: **[(إن الشمس والقمر)]** جملةٌ استفتحها – عليه الصلاة والسلام – بالتوكيد، وكان من عادة العرب: أن الأمور العظيمة التي قد يدخلها شكٌّ، والأمور العظيمة التي يحتاج المتكلم إلى إثباتها وتقريرها في النفوس: ينبغي أن تأتي بصيغةٍ وبخطابٍ يدل على التوكيد. فقال ﷺ: **[(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله)]** والآية: هي العلامة والدليل، والله ﷻ جعل هذا الكون بجميع ما فيه: من

سمائه وأرضه، وجامده ومائعه، ورطبه ويابسه، وليله ونهاره، وعشيه وإبكاره، وصبحه ومسائه، جعل كل ذلك آيةً من آياته الدالة على وحدانيته، الشاهدة على عظمته وألوهيته وقدرته وتدبيره، وأن الكل تحت قهره وملكه وأمره – ﷻ وتقدست أسماؤه –. فهذه الشمس آيةٌ من آيات الله: آيةٌ من آيات الله في عظيم خلقها، وآيةٌ من آيات الله فيما جعل فيها من جميل صفاتها، وآيةٌ من آيات الله إذا أشرقت فشع شعاعها فأحرق ما وقع عليه، أو انكسر ذلك الشعاع في آخر النهار، فأصبحت حمراء كالورس منكسرةً بأمر الله. تصبح على حالٍ، وتنتصب في النهار على حالٍ، وتمضي إلى المغيب على حالٍ، وكل ذلك بتدبير ذي العزة والجلال ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ قدرها – سبحانه – بذلك تقديراً، وهي بذلك الضوء الوهاج والسراج المنير تُقضى بها مصالح العباد، فينتفع بها الحاضر والباد، فيدخل شعاعها إلى البيوت فتستضيء، ويدخل حتى إلى الكهوف فتستضيء، وكل ذلك بأمر الله ﷻ. وجعلها الله آيةً بما فيها من الأسرار والحِكم حتى في خلق الإنسان: فالإنسان محتاجٌ إليها، محتاجٌ إلى شعاعها. والله – تعالى – جعلها آيةً في الحساب وتقدير الزمان ومعرفة الأوقات، كما أخبر ﷻ عن ذلك في كتابه في أكثر من موضعٍ، وهذا كله يذكر بالله، ويهدي إلى عظمة الله وجلال الله ﷻ. ولذلك كان العلماء – رحمهم الله – يقولون: إن مما يزيد الإيمان والتوحيد لله ﷻ: النظر في الآيات، والتي من أعظمها: آيات الكون العظيمة: كالشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب ونحو ذلك. فأخبر ﷺ أن الله ما خلق الشمس سدىً ولا أوجدها عبثاً، وإنما أوجدها؛ لكي يشهد المؤمن بوحدانية الله، ويقر بعظمة الله ﷻ.

[(إن الشمس والقمر)] فجعل القمر كالشمس في كون كل منهما آيةً من آيات الله – سبحانه –. هذا القمر الذي قدره الله منازل فعاد كالعرجون القديم، وكلاهما من شمسٍ وقمرٍ ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ فإذا أرخى الليل سدوله وأصبح الناس في ظلامه، جاء ضياء القمر فانتفعوا وأبصروا، ونظروا إلى عظمة الله فشهدوا ووحدوا وعظموا، فهم ينظرون إليه: كيف قُدرت منازله، وجعل الله ﷻ تلك المنازل دالةً على الساعات والأوقات واللحظات؟ حتى إن الليل نفسه تستطيع أن تدرك أوله أو أوسطه وآخره بمنزلة القمر، على حسب ذلك اليوم من الشهر، وكل ذلك بأمر الله ﷻ. فالمقصود: أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ﷻ بما جعل الله فيهما من هذه الدلائل العظيمة، لا

يستطيع أحدٌ – كائناً من كان – إذا أشرقت الشمس أن يحجب ضوءها، إلا الله وحده لا شريك له، ولا يستطيع أحدٌ – كائناً من كان – أن يوقف الشمس إذا جرت، إلا الله وحده لا شريك له، حبسها لنبيٍّ من أنبيائه، فانحبست ووقفت عن جريها ومسيرها بأمر الله ربها. ولا يستطيع أحدٌ – كائناً من كان – أن يطفئ ضوء القمر، ولا يستطيع أحدٌ – كائناً من كان – لو أذهب الله ضياء الليل أو ضياء النهار، فجلس الناس في سرمدٍ، ما يستطيع الرجل أن يرى أو يُبصر يده إذا أخرجها، فلا يستطيع أن يستبين ما أمامه وما وراءه إلا بأمر الله ﷻ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ فالله ﷻ ، وحده لا شريك له، القادر على تدبير هذه الآيات وتصريفها وتقديرها.

قال ﷺ: **[(لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته)]** فكذَّب أهل الجاهلية. وفي هذا دليلٌ على أنه ينبغي للمسلم أن يغار على حق الله ﷻ في توحيده والإيمان به ﷻ ، فمن توحيد الربوبية: اعتقادك أن الخلق خلق الله، وأن التدبير تدبير الله، ولا يُنسب هذا التدبير للأمور الطبيعية ولا للأمور الجبلية، وإنما هو لله وحده لا شريك له، كما قال ﷻ: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيُنسب الأمر إلى الله، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾فأخبر ﷻ أن الأمور كلها إليه ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾. فلا يجوز للمسلم أن يرد الأمور للحادثات أو للطبيعة، ولا يجوز للمسلم أن يعتقد أن الطبيعة مؤثرةٌ، وعليه أن يوقن وأن يؤمن إيماناً كاملاً: أنها لا تؤثر إلا بأمر الله، وأنه لا يكون منها من خيرٍ ولا شرٍّ إلا إذا أراد الله. وعلى ذلك: كذَّب النبي ﷺ هذه الظنون. وقولهم: "إن الشمس قد انكسفت لموت إبراهيم" فيه تشاؤمٌ، وكان أهل الجاهلية يتشاءمون، فإذا رأوا أمراً لا يُحمد نسبوه إلى مثله وجنسه، ولذلك قام الإسلام على رد الطيرة والتشاؤم، وتنبيه الناس على تركها وزجرهم عن العمل بها، وأن الواجب على المسلم: أن يُسند الأمور إلى الله وحده لا شريك له. **[(لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته)]** قالوا: يموت عظيمٌ، ويولد عظيمٌ في السنة التي تنكسف فيها الشمس.

قال ﷺ : **[(يخوف الله بهما عباده)]** في هذه الجملة دليلٌ على أن خسوف القمر وكسوف الشمس فيه تهديدٌ وتخويفٌ ووعيدٌ من الله ﷻ لعباده، وأنه ولو استطاع علماء الفلك والباحثون في الفلك أن يحسبوا

ويقدروا ويعلموا – بقدرة الله ﷻ – زمان الكسوف وزمان الخسوف: فإن الواجب: أن يبقى الناس على خوفٍ ورهبةٍ من هذه الآية العظيمة، ولذلك قال ﷺ: "يخوف الله بهما عباده" فدل على أن الكسوف والخسوف يُقصد منه تخويف الناس وزجرهم، وتذكيرهم وتنبيههم من غفلتهم، فلا يجوز أن يُنبه الناس على الكسوف والخسوف بأسلوبٍ يُذهب هذا المقصود الشرعي.

وكذلك في قوله – عليه الصلاة والسلام –: **[(يخوف الله بهما عباده)]** فيه دليلٌ على أنه ينبغي للمسلم إذا رأى أمور هذا الكون قد اختلت، أو الأمور المعتادة قد تباينت وخرجت عن المعتاد: عليه أن يفر إلى الله، ويكثر من ذكر الله، وأن ينيب إلى الله. ولذلك كان إمام الخائفين وسيد المتقين ﷺ إذا هبت الريح عُرف الخوف في وجهه، قالت أم المؤمنين – رضي الله عنها وأرضاها –: (كان إذا هبت الريح: أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وقال: لا أدري، لعلها أن تكون كريح عادٍ). فكان ﷺ كثير الخوف من الله ﴿ **فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ** ﴾. ومن عرف الله هابه، ومن عرف الله خافه وتمت خشيته لربه، فذل لله، وعلم أنه تحت سطوة الله وتحت قهر الله ﷻ ، فهو إذا رأى الكون قد اختل، أو زال عنه شيءٌ من الأمور التي اعتادها: فإنه يخشى أن تكون نقمةً من الله، فيتذكر ذنوبه وما أصاب من العيوب، فيخشى أن يكون مكراً من الله به، فينيب إلى الله ويتوب إلى الله، وذلك شأن الخائفين وأولياء الله المتقين: إذا رأوا البأساء تضرعوا إلى الله رب العالمين، قال الله في كتابه المبين: ﴿ **فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ** ﴾ أي: فهلا إذا رأوا بأس الله تضرعوا إلى الله، ورفعوا أكف الضراعة إليه – سبحانه –. وفي هذا دليلٌ على كمال حلمه وعظيم رحمته، وأنه إذا اختلت الأمور ورأى العبد بوادر العذاب، واستكان للرب وأناب: فإن الله لا يخيبه، فلعل دمعةً تمحو الذنوب، ولعل انكساراً لله يزيل الله به أدران الخطايا والعيوب.

قال ﷺ: **[(فإذا رأيتم منها شيئاً)]** أي: إذا أبصرت أعينكم تلك الدلائل على عظمة الله واختلال الكون بأمر الله **[(فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم)]** وفي روايةٍ: (وتصدقوا). وفي هذا دليلٌ على أن الصلاة من أعظم القربات وأفضلها وأحبها إلى الله ﷻ. فإذا نزلت بك الضراء أو عظم عليك البلاء، فالسنة والأفضل والأكمل: أن تفر إلى الله، وأن تدخل على الله منيباً إلى الله بالصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه، ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضاها –: (كان ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة).

فأفضل ما يتقرب به العبد إلى الله، إذا خاف من عذابه وشديد نقمته وأليم عقابه: أن يفزع إلى الصلاة، وأن يتضرع إلى الله – سبحانه – بالركوع والسجود. وكذلك قال ﷺ: **[(فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم)]** وفي روايةٍ: (حتى ينجليَ ما بكم). نسأل الله العظيم رب العرش الكريم بأسمائه الحسنى أن يرحمنا برحمته وهو أرحم الراحمين، وأن يتولانا بعفوه وحلمه وهو خير الغافرين، – والله تعالى أعلم –.